دراسة مفاهيم حب الوطن وانعكاسها على قصائد (الخاقاني) و (إبن الساعاتي) - دراسة مقارنة

مريم رحمتي (الكاتبة المسؤولة)
أستاذة مساعدة في قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، إيران
rahmatimaryam88@gmail.com
جهانگير أميري
أستاذ مشارك في قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، إيران
gaamiri686@gmail.com
بهناز نظري
ماجيستر في فرع اللّغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، إيران
behnaznazari0832@gmail.com

The study of patriotism concepts and their reflection on "Khaghani's" and "Ibn Sa'ati's poems - A comparative study

Maryam Rahmati (responsible writer)
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Iran
Jahangir Amiri
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Iran
Behnaz Nazari
MA in Arabic Language and Literature , Razi University , Iran

الملخص:-

الظروف السياسية والاجتماعية السائدة علي القرن السادس للهجرة جعلت تلك الحقبة متميزة من حيث احتواءها علي كمية من القصائد ذات قضايا وطنية لا يستهان بها. وفي السياق نفسه نبغ في الفترة ذاتها شعراء بارزون عُنوا في أشعارهم بالمضامين الوطنية في أوسع نطاق. ومن أبرزهم الشاعر الإيراني "خاقاني شرواني" والشاعر العربي "ابن الساعاتي". والحياة السياسية والاجتماعية المشتركة التي عاشها الشاعران في إيران ومصر حملتهما علي الاهتمام بالشعر الوطني تلبية لحاجة ملحة، شعرا بها في ذلك العصر بالامتياز. ومن الملفت أنّه ثمّة في قصائد الشاعرين قواسم مشتركة شجّعتنا علي إجراء دراسة مقارنة لهما فيما يتعلّق بالقضايا الوطنية في أشعارهما. ولقد كرّسنا جهودنا في هذا المقال لرصد المضامين الوطنية لدي الشاعرين خاقاني وابن الساعاتي، اعتماداً علي المنهج الوصفي والتحليل الأدبي وفي ضوء المدرسة الأمريكية للأدب المقارن. ومن أهمّ النتائج التي حقّقها هذا البحث هو أنّ الشاعرين خاقاني وابن الساعاتي علي الرغم من كثرة وجوه التلاقي فيما بينهما يختلفان في رؤيتهما صوب الحياة. فبينما ينظر خاقاني إلى الحياة بمنظار أسود ويري الأحداث رؤية تشاؤمية، ينظر ابن الساعاتي إلى المصائب نظرة إيجابية مفسّراً المشاكل والمتاعب تفسيراً ناجماً عن روح التفاؤل.

الكلمات المفتاحية: حب الوطن، القضايا الوطنية، دراسة مقارنة، رؤية تفاؤلية وتشاؤمية، خاقاني، إبن الساعاتي.

Abstract:-

Political and social events have been converted the 6th century that is the historical ages to the fundamental and unique ones in terms of patriotic concepts. The poets composited their poems with patriotism concepts during the time in which we can call some great poets such as Khaghani Shervani and Arabic poet, Ibn Sa'ati. Whereas the political and social conditions that is the same to two these poets were identical frequently so that they steered to a sort of poetry which is called cosmopolitan and patriotic one. The authors try to analyze and investigate their patriotic concepts -especially having common similarities- by analytic-descriptive method and based on Comparative Literature of American School in careful. The obtained results show although there is a lot common ones among them conceptually and contextually, there's a clear difference from their insights and how to attitude among them of around problems and difficulties. Thus Ibn Sa'ati was hopeful and enthusiastic (optimistic) and could encounter the problems and difficulties hopefully positively. In reverse, Khaghani had considered the difficult happenings and events as loneliness and nostalgia negatively and pessimistically. But, the core of both poets' poems is political and social as well as has the national and patriotic background.

Key words: patriotic theme, comparative contrast, optimism and pessimism, Khaghani, Ibn Sa'ati.

١ـ المقدّمة:ـ

ذهب عدد غير قليل من الباحثين في الدراسات الأدبية إلى أنّ موتيف الوطن بمفهومه الحديث دخل ولأول مرّة في الأشعار الفارسية في عهد الدستور إذ لم نعثر قبل ذلك العهد علي قصيدة تتحدّث عن الوطن كما هو معهود وشائع في أيامنا هذه. إلا أنّ الشعراء الذين عاصروا فترة الدستور ضمّنوا أشعارهم مواضيع تدخل في نطاق حبّ الوطن والاتّجاهات الشعبوية تأثّراً بالأدب الغربي. بناءً علي ذلك نستطيع القول إنّ الرؤية الجديدة نحو الوطن والشعب تعود إلى العصر الغجري وتحديداً فترة الدستور في إيران(١). وأمّا فيما يختصّ بالشعر الوطني في الأدب العربي، فقد ذهب معظم الأدباء إلى أنّ الشعر الوطني بمعناه الحديث نشأ وترعرع في العصر الحديث. بناءً علي ذلك أنّ القصائد العربية التي نشأت في العصور القديمة تفتقر إلى الوطنيات بمفهومها الجديد. إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ الشعر القديم يخلو بتاتاً من المضامين الوطنية إذ بإمكاننا العثور علي نماذج شعرية رائعة تتّسم بسمة الوطنية وعلي وجه التحديد القرن السادس الهجري لكنها لم تكن مستقلة ذات وحدة موضوعية بل كانت متناثرة بين مختلف الفنون الشعرية. ومن أبرز الشعراء الذين تشتمل قصائدهم علي الدلالات الوطنية خاقاني وابن الساعاتي. لقد حاولنا في هذا المقال تسليط الضوء علي جوانب من النتاج الشعري للشاعرين في نطاق الأدب الوطني. وممّا يجذب انتباهنا في هذا المجال هو أنّ الشعر الوطني ليس حكراً علي العصر الحديث إذا إنّ له تاريخاً قديماً يعود إلى القرون الماضية وكما أشرنا مسبقاً أنّ المنهج الذي اخترناه في بحثنا هذا هو المنهج الوطني التحليلي وفي ضوء المدرسة الأمريكية للأدب المقارن. وليس في هذه المدرسة خلافاً للمدرسة الفرنسية التأثير المتبادل والتزامن التاريخي بين النماذج الأدبية من الشروط اللازمة للدراسات المقارنة(٢).

يمكن اعتبار الشعر مرآة صافية تعكس أفكار الشعوب وأحاسيسها؛ انطلاقاً من هذا يعدّ الشعر آلية صالحة للكشف عمّا يجول في صدور الناس من الهواجس والآمال والطموحات في كلّ عصر ونسل. الشعر الذي عاش في القرن السادس الهجري يحمل معه المزيد من المعاني والمضامين من حيث كان متأثرا بحقبة حسّاسة ومليئة بالأزمات التي عصفت ببلدنا إيران.

١-١- إشكالية البحث

تحفل أشعار خاقاني وابن الساعاتي بالمزيد من القضايا الوطنية والقومية. لقد بيّن

الشاعران في قصائدهما التي تتعلق بأغراض المدح والوصف والرثاء وغير ذلك من الأغراض الشعرية، الأحداث السياسية والاجتماعية الصعبة التي خيّمت علي حياتهما. والغاية التي نتوّخاها في هذا المقال إجراء دراسة مقارنة بين الشاعرين. وخطّتنا في هذا البحث تتمثّل في البحث عن المضامين المشتركة الملتقاة في كلمات الشاعرين ومن ثّم تحليلها تحليلاً دلالياً نتبيّن فيها وجوه التلاقي والتباين.

١-٢- أسئلة البحث

وفيما يلي نطرح السؤالين الأساسيينِ اللذين نحرص علي التوصل إلى الإجابة عنهما من خلال البحث إجابة تقوم علي أسس التحقيق العلمي والمنهج الأدبي المقارن:

أ- ما هي أهمّ المضامين التي تحتويها قصائد الشاعرين خاقاني وابن الساعاتي فيما يتعلق بقضايا وطنية؟

ب- ما هي أبرز أوجه الاشتراك والافتراق في قصائد الشاعرين فيما يخصّ القضايا الوطنية؟

١-٣- فرضية البحث

و أمّا الفرضية التي تدور حولها أسئلة البحث هي: أنّ الحياة السياسية والاجتماعية التي مرّ بها الشاعران خاقاني وابن الساعاتي تشترك في كثير من مجرياتها ما أدّي إلى انخراط الشاعرين في الشعر الوطني بكلّ حذافيره. وبغض النظر عن الوجوه المشتركة في شعرهما فالفارق الأساسي لهما يكمن في اختلافهما في النظر إلى الأحداث والوقائع. حيث إنّ لخاقاني نظرة تشاؤمية ولنظيره رؤية تفاؤلية.

١-٤- ضرورة البحث

يرى بعض الباحثين في مجال الأدب العربي والفارسي أنّ الأشعار الوطنية وليدة العصور الحديثة وأنّ الأعصار السالفة تخلو من هذه القصائد جملة وتفصيلاً. ولكن بناءً علي هذا المقال أنّ للمضامين الوطنية تاريخاً قديماً يعود إلى القرن السادس الهجري وهو عصر خاقاني الإيراني وابن الساعاتي العربي. والنماذج الشعرية التي ذكرناها في هذا البحث خير دليل وشاهد علي أنّ موضوع الوطن استقطب انتباه الشعراء قديماً وبصورة

متميزة في القرن السادس الذي شهد الحروب والمعارك. والحروب التي شهدتها تلك العصور ألقت بظلالها علي حياة الشعراء بحيث قادتهم إلى حياة التشرد والتّسيار. ومن ثمّ صوّروا آلامهم وهمومهم في قصائدهم في أجواء تسودها المشاعر النوستاليجية.

١-٥- خلفية البحث

لم نستطع العثور علي دراسة تهتمّ بالمقارنة بين خاقاني وابن الساعاتي في حقل الأشعار الوطنية. إلاّ أنّه تمّت دراسات عديدة حول خاقاني دون ابن الساعاتي ومن أهمها: ١- أطروحة جامعية عنوانها ((سيماي جامعه)) در اشعار شاعران آذربايجان (خاقاني و...) (معالم المجتمع في أشعار شعراء أذربيجين خاقاني نموذجاً) لـ (حسين نوين رنگرز، ١٣٧٨) وقد درس فيها الباحث الظروف الاجتماعية والتاريخية والتقاليد السائدة علي البلاط والأساليب المستخدمة في القتال والأشكال المختلفة للدفاع عن البلد وطرق المواجهة للأعداء والمعتدين وطرق كسب المعاش وما شابه ذلك ممّا يتعلق بمسارات الحياة للمجتمع الذي عاصره خاقاني. ٢- ثمة مقال عنوانه ((تحليل زمينهاي نوستالژي در اشعار خاقاني)) (دراسة بنيوية لنوستاليجيا في أشعار خاقاني) ل (إمامي وسعادتي:١٣٩٤)، قام الباحثان بدراسة المشاعر الاغترابية في أشعار خاقاني وأسباب نشوءها. ومن الغريب بمكان أنّه لم يتم لحدّ الآن دراسة تتعلق بالمضامين الوطنية في قصائد ابن الساعاتي مع أنه يعدّ من أعلام الشعر الوطني في عصره. فيمكن اعتبار مقالنا هذا جديداً إلى حدّ كبير. ذلك لأنه يقارن بين الشاعر الإيراني خاقاني والشاعر العربي ابن الساعاتي ولا يخفي علي أحد أنهما من فحول الشعر في عصريهما وروّاده. ونأمل أن يكون هذا البحث إضافة قيمة ومفيدة إلى الدراسات المتعلّقة بالأدب الوطني أولاً والأدب المقارن ثانياً.

٢- نبذة قصيرة عن حياة الشاعرين

بما أنّ للتعرف علي مواقف هامة من حياة الشاعرين أثراً هامّاً لا ينكر لاستيعاب أشعارهما، نذكر فيما يلي أهمّ محطات حياة الشاعرين باختصار شديد. ولد أفضل الدين بديل بن علي المشهور ب ((خاقاني شرواني)) في بلدة ((شروان)) في القرن السادس الهجري. كان أبوه علي ينشغل في مهنة النّشار كما كانت أمُّه تعتنق الديانة المسيحية. يعُدّ خاقاني من فحول الأدب الفارسي وأعلامه حيث بلغ ذروة الشعر. وأصبحت قصائده

موضع اهتمام سائر الشعراء بشكل لا مثيل له ولا نظير. وأوّل من سمّاه ب ((الخاقاني)) لأوّل مرّة هو ((شروانشاه)) من ملوك ((شروان)). لقد عاش خاقاني ما يقارب أربعين عاماً في بلاطهم. وكان لخاقاني مهارة فائقة في حبك القصيدة وسبك الأشعار في غاية الروعة والجمال. خلّف خاقاني ديواناً سمّي ب ((تحفة العراقين)) ومجموعة من الرسائل سميت بـ ((المنشآت)). كان مسقط رأسه مدينة شروان من بلاد قوقاز. كان لخاقاني أعداء وخصوم يضمرون له الأحقاد ويناصبون له العداء. يمكن القول إنّ المكانة المرموقة التي كان يحتلّها خاقاني لدي الملوك أثارت الحفيظة والضغائن في نفوس منافسيه وأعداءه ما جعلهم يدبّرون له المكائد والفتن. ولذلك يشكو شاعرنا دوماً ممّا يعانيه من سعاية الوشاة وعداء الحُسّاد ممّا انعكس في أشعاره انعكاساً واسعاً وأضفت عليها طابعاً سلبياً ومتشائماً[٣]. وأما أبوالحسن علي بن رستم بن هردوزي الخراساني المشهور ب ((ابن الساعاتي)) فقد عاش معاصراً للأيوبيين[٤] ارتحل أبوه من خراسان إلى دمشق مزاولاً صناعة الساعات ولذلك اشتهر أبنائه وأحفاده بالساعاتي. ولد بهاءالدين في دمشق حيث قضي طفولته وشبابه ثّم انتقل إلى القاهرة، طرق ابن ساعاتي أبواب الشعر كلّها حتى برع فيها إلاّ أنّه صبّ جلّ اهتمامه في إنشاء المديح النبويّ فذاع صيته ودوّت شهرته عبر الآفاق والبلاد. نوّه المؤرّخون والأدباء بذكره وأشعاره في كتبهم واعتبروه رائد الشعر وفارس حلبته[٥]. وأمّا فيما يتعلّق بشعره، فإنّ له مديحاً نبوياً سمّي بـ ((ربِّ أَعن)) قلّد فيه كعباً. تفنّن ابن الساعاتي في معظم أغراض شعرية ففاق فيها أقرانه وبزّ أترابه حتى أصبح علماً من أعلام الشعر لايداني[٦] لم تتطرق المصادر المعنية بحياة الشاعر إلى مذهبه ودينه مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ ثمة من لا يستبعد كونه شيعياً نظراً إلى أشعاره الّتي مدح فيها أميرالمؤمنين علياً عليه السلام وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله معدّداً فيها مناقبهم وفضائلهم ما يدلّ علي ولاءه وتشيعه لهم[٧] إلاّ أنّ مجرّد مدح الشاعر للأئمة عليهم السلام وإظهار الولاء لهم لا يعتبر دليلاً حاسماً علي كونه شيعياً. خاصّة وأنّ جلّ شعراء المديح (إن لم نقل كلهم) امتدحوا أيضاً أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه. وفي حال قلنا بتشيع الرجل ربما بإمكاننا القول بأنّ لتشيعّه دخلاً في تجاهل المؤرخين وإغفالهم له ولمديحه.

٣- المضامين المشتركة في أشعار الشاعرين وأسباب نظمها

لا شك أنّ لكلّ شاعر وأديب أسبابه ودوافعه للولوج في القصائد الوطنية. إذا أراد الشاعر مثلاً تأجيج الحماس والبطولة في نفوس القارئين يهتمّ بذكر الأبطال والفرسان الذين

حققوا مواقف بطولية خارقة وسجّلوا انتصارات رائعة أثناء الذود عن ذمارهم وحماهم. والأسباب والبواعث التي دفعت بالشاعرين خاقاني وابن الساعاتي إلى الإهتمام بالشعر الوطني تكاد تكون سوية إلى حد كبير. فمعظم الحوافز التي حفزت الشاعرين علي طَرق أبواب هذا النمط الشعري هي استيلاء نفسية هشة وحساسة ومزاج حاد سريع الانفعال علي الشاعرين لا يحتملان بسببه الحوادث الطارئة والأحوال المفاجئة كمصيبة فقد الأولاد والأحبة وفراق الوطن والأصدقاء والعيش في الغربة والوقوع في السجن وغير ذلك من العوامل المثيرة لنظم الأشعار. وبصورة عامة تعكس أشعارهما حالة من العزوف والضجر والسأم. لو أمعنا النظر في كلمات الشاعرين لوجدنا أن جلّها ينبثق من أفكار تستوحي من قضايا وطنية ومن أبرزها: التشكي من الدهر وأحزان الغربة والحنين إلى الوطن والأعتزاز بالوطن والتغني بمعالمه.

ولا يفوتنا أن الأشعار الوطنية للشاعرين تتخللها أحياناً مضامين ذات صبغة سياسية واجتماعية وثقافية ومعيشية إلا أن الاتجاه السائد علي أشعارهما هو الإتجاه الوطني. تجدر الإشارة إلى أنه راجت وكثرت في القرن السادس الهجري الأشعار التي افتقدت الطابع السياسي كمدح السلاطين ووصف الطبيعة ووصف آلام الغربة وما إلى ذلك من الموضوعات التي تخلو من المغزي السياسي رغم ما نراه في العصور المتأخرة. بل كان يمثل الوطن غالباً ما قضية شخصية يذكرها الشعراء كلما تعتريهم المشاعر الاغترابية التي يعيشونها في الغربة[٨] ونقوم فيما يلي بدراسة المضامين الوطنية في أشعار ابن الساعاتي وخاقاني بادئين ب: التشكي من الدهر.

٣-١- التشكي من الدهر

من أبرز ملامح حبّ الوطن لدي الشاعرين احتمالهما لشدائد الدهر ومعاناته. التشكي من الآم الدهر يعدّ من المضامين التي لم تغب يوماً عن الدواوين الشعرية بل تردّد في أشعار القرن السادس للهجرة في نطاق واسع بما فيه قصائد خاقاني وابن الساعاتي وممّا شجع الشعراء في ذلك القرن علي الاهتمام بالشعر الوطني انتشار المصائب والآلام الاجتماعية وإهمال السلاطين للشعراء وتفشي الحروب الصليبية. وكما أسلفنا توّاً أنّ الشعر الوطني في تلك الآونة اصطبغ بصبغة الشعر الشاكي إذ كان العتاب من سماته البارزة.

إلاّ أنّ القصائد الوطنية في تلك الفترة ينقصها اللون السياسي رغم ما نراه في عصرنا الحالي.

ولكن كانت المضامين الوطنية تأتي غالباً ما ضمن الشعر الشاكي حيث كان الشاعر يشتكي ما يعانيه من حياة البؤس والشقاء وفراق الأحبة والحنين إلى الديار[٩] ممّا نستنتجه من قصائد ابن الساعاتي أنّه ظل يصمد أمام نوازل الدهر وصروف الحدثان مستخفّاً بما يلقاه من المآسي والخطوب. والأمر الذي جعل شاعرنا يشكو دهره أن أبناء عصره لم يعترفوا بفضائله وأدبه ولم يقدّروا قدراته ومواهبه ولذلك داهمه الشعور بالوحدة والغربة:

يهـــوّنُ عنـــدي الحـــدثانَ صـــبري ... فمـــا أَخْشـــى النوائـــبَ أنْ تَنوبـــا

وَمـــا أَشـــكو سِـــوى حَســـناتِ دَهـــري ... فـــلو حاقَتـــه كانـــت ذنوبـــا

وكـــلٌّ بـــاتَ ذا وطـــنٍ وأهـــلٍ ... ولـــيسَ بـــه سِـــوى فَضْـــلي غَريبـــا[١٠]

والإهمال الذي لقيه الشاعر من الممدوحين ألهب في نفسه مشاعر الإحباط بالرغم من أنّه كان يحتلّ مكانة أدبية سامية في عصره. والنماذج الشعرية التي يضمّها ديوان ابن الساعاتي تعطينا القناعة بأنّه جعل العتاب والشكوي أداة صالحة لنشر ثقافة المقاومة والصمود أمام المشاكل وعدم الاستسلام والرضوخ للمصائب. علماً أن عصر الشاعر كان مشحوناً بالحروب والصراعات المندلعة بين المسلمين والصليبين التي فتحت ألسنة الشعراء بمن فيهم ابن الساعاتي بالتّشكي من نتائج الحروب الكارثية.

وأما خاقاني فإنه انتقد بدوره الدهرَ وما عاناه جراءه من النّوائب والمصائب داعياً المخاطب إلى التحلّي بالصبر والمثابرة، واصفاً الصبر سلاحاً يفتك بالمشاكل والمعضلات. والأحاسيس التي أبداها خاقاني حيال البلد تبدو متعارضة تارة ومتناقضة أخرى وقد تشوبها مشاعر الكبت والإحباط. وممّا يدعو للاستغراب أن خاقاني أعرب عن انزعاجه في بلدته ((خاقان)) معتبراً إياها سجناً رهيباً. ولذلك يطمح دوماً إلى التخلّص منه. يرى الشاعر حظّه سيئاً ومشؤوما إلى درجة كلما أراد القيام برحلة واجهته العراقيل. وممّا يهوّن روعة الشاعر وينفس كربته أنّه يعتبر مكوثه في مدينته ((خاقان)) رغم معاناته فيها مثوبة وذخراً ليوم الحساب:

بـر طـاق نـه حـديث سـفر زانكـه روزگـار　　چـون طالـع تـو نـامزد انقـلاب شـد
در حبسـگاه شـروان بـا درد دل بسـاز　　كـان درد راه تـوش ٔ يـوم الحسـاب شـد
گـل در ميـان كـوزه بسـي درد كشـيد　　تـا بهر دفع درد سر آخر گـلاب شد[١١]

التعريب: ((دعْ جانباً الحديث عن الرحيل ذلك لأنّ الدهر شأن حظّك السيء آخذ بالتّدهور./ تحمّلْ المصائب في خاقان التي أنت رَهين سجنها لأنّه كلّ ما تحتمله من المآسي يدّخر لك ليوم الحساب./ كما أن الأزهار لا يستخلص ماءها الذي يعالج الصداع إلّا بعد أن تجتاز مراحل صعبة)).

من الجدير ذكره أنّ الشاعر إذ لم يستطع مغادرة بلده مع أنّه يعاني فيه من الأحزان والهموم، ما لا يعدّ ولا يحصي فإنّه شبّه نفسه بالورود التي يمتصّ عصيرها وخلاصتها عبر إخضاعها لظروف عنيفة وقاسية في الأتون. وممّا قاد شاعرنا إلى هذا التشبيه هو حاجته الماسّة للتنفيس عن الكروب والتخفيف من آلامه. بناءً علي أنّ المشاكل التي يتجشّمها الشاعر تفجّر طاقاته وتبلور قابلياته حتى يصبح كماء الورد الذي يستخدم لعلاج أوجاع الرأس. وما يعانيه من المتاعب يدّخر له كالثواب حتى يتمتّع به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

٣-٢- التشكي من المشاعر الاغترابية (أو النوستاليجية)

المشاعر النوستاليجية أو الاغترابية تحتلّ حيزاً كبيراً من أشعار خاقاني وابن الساعاتي. مفردة النوستاليجيا (nostalijia) مفردة فرنسية تعني الشعور بالغربة والحزن الناجمين عن البعد عن الوطن أو الذكريات الماضية والمقصود بها في مقالنا هذا هو المشاعر الاغترابية التي يتسبّبها الابتعاد عن الدار والأهل والوطن[١٢].

لقدجرّب كلّ من الشاعرين مشاعر العيش في بيئة نائية عن الديار مما دفعهما إلى الإعراب عن الأحزان التي تنتابهما أثناء الغربة. المشاعر الحزينة التي ساورت الشاعرين أخذت تتفاقم وتتضاعف حتى تثير عواطف الحزن والكآبة في نفوس المخاطبين. يرى ابن الساعاتي أنّ من عادة الناس الإساءة إلى من يعيش بجوارهم ورعاية واحترام من يسكنون بمنأي عنهم ومن عادتهم أيضاً أنّهم يتشبثون بالأمم الماضية ويلتزمون بما قالته تلك الأمم ثمّ يضرب نفسه مثلاً ويقول إنّ أبناء بلدته باتوا يمدحونه منذ أن تنقّل إلى بلد آخر واختار حياة

الغربة والتشرد في حال أنّه كان مهملاً ريثما يعيش ببلده. لكنّه يبكي شوقاً وحنيناً إلى بلدته في حالة من الضّياع والارتباك ولكي يقرب المعني من أذهان السامعين، يتوسل إلى تشبيه ضمني قائلاً: إنّ الأمطار منذ أن غادرت البحار باتت الغيوم ترحبّ بها لكنّ الأمطار تتساقط وكأنّها تبكي حزناً وأسفاً علي غربتها:

ذَمّ الْـوري كـلّ مَحمـودٍ ومـا تَبِعـوا ... غـيرَ الْأوائـلِ فيمـا قيـلَ والسّـلَفا

لَتحمِـدُنّ لِحَملـي الْعـيشَ عَـنْ بلـدٍ ... أبكيـه مـا غبـتُ عنـه هائمـاً دَنِفـا

فَالْغيـثُ لـولا فِـراقُ الْبَحـرِ مـا حَمِـدتْ ... لـه السَّـحائبُ لَمّـا أنْ بكـي أسـفا[١٣]

يتغني ابن الساعاتي في مقتطف آخر من شعره ببلدته واصفاً إياها بالجنة التي تعج جنباتها بالحور العين والولدان المخلدون. وكلّ شيء في بلدة الشاعر في غاية الجمال والروعة بحيث لا يوجد فيها ما يعاب به. أصبح الحزن يعتري شاعرنا إثر تركه لبلده في حين أنّ البلد كان هو الذي يزيل الأحزان عن نفس الشاعر أيام كان يقطنه. يتوق شاعرنا إلى مسقط رأسه الذي يحتضن أصدقاءه وأحبابه الذين يتحرّق إليهم شوقا وحنينا:

دارٌ هـي الْجنـةُ خـابَ عـاذِلٌ ... في حُورِهـا الْعِـينُ وفي ولْـدانِها

وأُحـزِنُ نَفسْـي لِفِـراقِ وطـنٍ ... مِـنْ قَبـلِ كـمْ أَذهـبَ مِـنْ أحزانِهـا

وَمسْـرَحُ إِخْـواني ونفسـي حُـرةٌ ... مـذ خُلِقـتْ تَصْـبو إلى إِخْوانِهـا[١٤]

يشكو ابن الساعاتي ما قاساه في مهجره مصر من آلام الغربة فلا يجد من يركن إليه عند الشدائد فأصبح الشاعر وكأنّه غير مرحّب به في المهجر. ولّما اكتنفت ابن الساعاتي مشاعرُ الوحدة والاستيحاش بات يفتقد أشقاءه في الشام داعياً لهم بالسقي والرّي وهو يغوص في خضّم العواطف النوستاليجية:

خَليلـيَّ مِـنْ علْيـا دَمشْـقَ سُـقيتُما ... فَلـيسَ بمصـرَ لِلْغريـبِ خَليـلُ

عسـى أهلَهـا أنْ يهُـزّ الْمجـدُ والنّـدى ... فمـا أَحـدٌ مِنْهُـم إلى يميـلُ[١٥]

ومن أبرز المضامين التي نتقصّاها غالباً ما في قصائد خاقاني هي عدم تعاطي الدهر مع الشاعر بصدق وإخلاص. ممّا أفضي إلى غلبة الرؤية السلبية والتشاؤمية عليه ولجوءه إلى العزلة والانكماش[١٦]. وصلت النظرة السوداوية للحياة في نفس الشاعر درجة لا تلوح

بسببها في أفق حياته سوي الغيوم الداكنة. فأخذ يتطلع إلى المستقبل عازفاً بقيثارة شعره أنغام الحزن والأسي طالما لا يرى في وطنه من يأنس به ويبوح له بأسراره.

تطالعنا في ديوان ابن الساعاتي الشعري أيضاً أبيات تعكس الشعور بالمعاناة الناجمة من الغربة. تشكل هذه الأبيات مَعْلماً من معالم أشعار ابن الساعاتي وخاقاني الرئيسة. إلّا أن ّابن الساعاتي لم يركع أمام الاحساس بالكآبة إذ حاول أحياناً إضفاء طابع تفاؤلي علي أشعاره ليخفّف عن آلام الاغتراب. بإمكاننا القول إنّ ابن الساعاتي بذل ما في وسعه ليحوّل آلام الفراق فرصة يعتزّ فيها بنفسه. وهذا الاتّجاه قلّما نراه في أشعار خاقاني. انظر كيف يشبّه ابن الساعاتي نفسه مرّة بالدّر الذي لايتحول درّاً إلّا بعد الابتعاد عن وطنه وهو الصدف وأخري شبّه نفسه بالهلال الذي لا يصبح بدراً متكاملاً إلّا بعد احتماله أعباء السفر واجتياز مراحل عديدة من حياة الترحال بكل قوّة وحسم.كما يلوم الشاعر قلبه الذي يتلهّف علي وطنه شوقا. لأنّه يرى قمة سعادته وكماله في العيش بعيداً عن الوطن ويعتبر الحياة في الدار وسط الأهل والأحباب تثبيطاً للعزيمة وثنياً للإرادة:

لمْ يشرقِ الدُّرُ لو لا هَجَر موطِنَه ... والْبَدْرُ ما تمّ حتى جَدَّ في الطّلَبِ

يا عذَّبَ اللّهُ قلبي كم أُجاذبُه ... إلى النّجاةِ ويعدوُها إلى الْعطَب[١٧]

إذاً حسبما نستشفّه من كلمات الشاعر أنّه كنّي عن مغادرة البلد بالخلاص والنجاة كما كنّي عن الإقامة في البلد بالهلاك والرجوع إلى الوراء والقهقري.

و أمّا خاقاني فإنّه يحنّ إلى خراسان لكنّه لا يرغب في العودة إليها لما اختبر فيها من مصائب والذي حرّض شاعرنا علي العيش في بيئة غريبة أنّه لم يشعر بالأمن والراحة في بلده ولذلك يفضّل حياة التشرّد والترحال وممّا سهّل عليه وطأة الغرابة وخفّف من أعباءها أنّه يعتبر وطنه بلداً خراباً ومنهاراً لا تسكنه إلّا البومة:

چون مرا در وطن آسايش نيست ... غربت اوليتر از اوطان چكنم؟

دو سه ويرانه در اين شهر مراست ... چون نيم جغد به ويران چه كنم؟

التعريب: ((طالما لم أحظ بالأمن والرخاء فأفضّل الغربة علي العيش في الوطن فماذا لي من حيلة؟/ الدمار والخراب يعمّان بلدي بما أنّني لستُ بومة حتى أسكن الخراب فماذا لي من حيلة!؟))

لقد شبّه الشاعر في المتقطف الشعري التالي نفسه بالإمام الحسين عليه السلام كما شبّه بلدته شروان بأرض كربلاء وأعداءه بيزيد وشمر ممّا يدّل علي توّغل الشاعر في غمار الرؤية التشاؤمية نحو الحياة من ناحية وكثرة ما قاساه في بلدته شروان من ظروف قاسية:

در همه شروان مرا حاصل نيامد نيم دوست — دوستْ خود نا ممكنست ايكاش بودي آشنا

من حسين وقت و نا اهلان يزيد وشمر من — روزگارم جمله عاشورا وشروان كربلا[١٨]

تعريب البيتين: ((لم أجدْ في شروان من أقصاها إلى أقصاها شبه صديق، إذ يكون من المستحيل العثور علي صديق فيا ليتني حصلتُ أقلّه علي قريب من الأقرباء/ كأنّني حسين ومن يحوطني من الأشرار يزيد وشمر وكأنّ دهري هو عاشوراء وبلدة شروان هي كربلاء بعينها)).

٣-٣- مدح المقاتلين الشجعان

لقد أشاد الشاعران في كثير من قصائدهما بالمقاتلين الأبطال الذين دافعوا عن بلادهم دفاعاً مستميتاً وتصدّوا للمعتدين فطردوهم عن أرضهم وديارهم وهم صاغرون كما تلاحق الظباء بالأسود. ومن الطريف أنّ كلاً من الشاعرين شبّه أبطاله بالأسود التي تصول علي فرائسها وتحوّلها لقمة سائغة ووجبة دسمة. لو نظرنا في المقطع الشعري التالي لوجدنا أنّ ابن الساعاتي جمع بين الشكوي والمدح. فإنّه يشكو السهول والجبال التي تمتدّ في دمشق علي مدي الطرف، والتي تحتوي علي تلال رملية نبتت فوقها أشجار البان الطويلة. ثمّ عرّج الشاعر ابن الساعاتي من ذكر دمشق وسهوله وتلاله إلى التنويه بالمقاتلين الذين يحافظون علي بلادهم بكلّ قدم وساق. إلّا أنّ الشاعر أصبح يشبّه المقاتلين الأبطال بأشجار البان لقوامها الرشيق وصمودها أمام العواصف الرملية والحرّ القائظ والظمأ القاتل. وهكذا تغنّي شاعرنا بأبناء دمشق البواسل الذين استرخصوا ما لديهم من نفس ونفيس للحفاظ علي عرينهم كالأسود ووقفوا في وجه الشدائد والصعاب كأشجار الرمال. وقد أعرب الشاعر عن حنينه وحبّه أيضاً لمسقط رأسه دمشق:

واهاً لِسَفحِ دمشقَ حيثُ تفاوحَتْ — كثبانُه وترنّحتْ باناتُه

هو موقف الشّكوى الّذينَ لولاه ما — فُتِكت بُغلبِ أُسوده ظبياتُه[١٩]

أخذ خاقاني يثني علي المقاتلين الأبطال في بلده ((شروان)) مشبّها شجعانه بالأسود علي غرار ما فعله ابن الساعاتي. ثم يذكرنا الشاعر بالهجوم الشرس الذي نفّذه مقاتلوا ((شروان)) علي رجال ((روس)) إلّا أنّ أسود شروان أذاقت جنود الروس هزيمة نكراء. والشجاعة التي أبداها أبطال شروان أثناء الزحف علي جنود الروس أثارت المخاوف والهلع والذعر في أسود سيستان حملتها علي الهروب من عرينها. شبّه خاقاني في صورة أخرى مقاتلي شروان بالصقور أو النسور التي تنقضّ علي الأعداء وتطاردهم من أوكارهم.إنّ الأعداء لو قويت شوكتهم واشتدّ بأسهم حتى تحوّلوا عنقاءً فليسوا أمام مقاتلي شروان سوي عصافير صغيرة ترتعب خوفاً وجبناً:

لشكري ديدي شبيخون برده بر ديوان روس — از كمين غرشش شير سيستان انگيخته

شب‌روي كرده پلنگ آسا همه شاهين دلان — چون قطا سيمرغ را از آشيان انگيخته[٢٠]

تعريب البيتين: ((رأيت جيشاً أغار علي بلاد الروس فزأر وَصالَ حتى هربت الأسود من عربدته وصولته./ أغار الجيش وهو يشبه فهوداً أو صقوراً جعلت أعداءها يبدون أمامها كالقطا وإن ظهروا بمظهر العنقاء.))

٣-٤- التغنّي بالقوم ومعالم الوطن

ممّا يدلّ علي حبّ الشاعر لوطنه أنّه انهمك في وصف طبيعة الوطن الخلابة بتفاصيلها[٢١]. وصف الشاعران ما شاهداه من جمال وروعة في بيئة الوطن من الوهاد والهضاب والمياه والاخضرار والأمطار والحقول وما إلى ذلك من المشاهد الخلّابة التي تتمتع بها طبيعة خراسان ومصر. عبر ابن الساعاتي عن حبه وانبهاره لوطنه الحبيب وطبيعته المعطاء أثناء وصفه لحدائقه الغنّاءة. يصف الشاعر حديقة رائعة من حدائق وطنه تحتوي علي مشاهد أخّاذة تسحر الألباب وتستلب القلوب. فالحديقة مشحونة بالأزهار والأشجار التي تفوح روائحها الطيبة في كلّ الأرجاء فتتحوّل الأجواء كلّها إلى فتات المسك والعنبر وتفترش أرض الحديقة بأنواع البسط الحريرية:

وَلَقَدْ نزلتُ بروضةٍ وطنيةٍ — رَتَعتْ نواظُرنا بِها والْأنفُسُ

ظلّتُ أعجبُ حيثُ تفوح الأزهارُ — والمسكُ مِنْ نَفَحاتِها يتَنَفَّسُ

ما الجوّ إلّا عنبرٌ والدَّوحُ إلّا — جوهرٌ والأرضُ إلّا سُندسُ[٢٢]

ذكر ابن الساعاتي في كلماته أمكنة يشتمل عليها مسقط رأسه معرباً عن حبّه وميله تجاهها فها هو يشير في الشعر التالي إلى بلاد تجاور بلده تروق الشاعر ألا وهي دمشق و((جيرون)) و((الشرقين)) و((المصلى)) كما يتوق الشاعر إلى ما يحتضنه بلده من وهاد وهضاب:

واطَرَبـــــــا إلى دمشـــــــقَ وإلى ... جَيرونهـــــا شـــــوقاً إلى جِيرانهـــــا

والشـــــــرقَين والمصـــــــلّى وذُرى ... رَبوتِهـــا والوهِـــد مِـــن مَيـــدانها[٢٣]

شكلّت القصائد التي افتخر فيها الشاعران بالقوم والوطن كمية لا بأس بها من أشعارها والسبب ربّما يعود إلى أنّ الشاعر الملتزم بحب الأهل والوطن يعتبر نفسه فرداً من أفراد مجتمعه وقطعة من موزائيك بلده لا انفصام لها. فلنأخذ اللقطة الشعرية التالية مثالاً:

وإنـــا لَمِـــن قَـــومٍ مَواقِـــعُ جُودِهِـــمْ ... مَواقـــعُ جُـــود الْغَيـــثِ فِي الْبَلَـــدِ القفْـــر

ومـــا كـــان نظْـــمُ الشّـــعرِ عـــادةَ مثلِنـــا ... لمـــــسألةٍ لَـــــولا الْـــــإرادةُ للـــــفَخْرِ

وَلـــــولا بقايـــــا صـــــبوةٍ عربيـــــةٍ ... لِـبعضِ الضّـباء لا البـيض والسُّـمَّرِ[٢٤][٢٥]

من الملاحظ أن شاعرنا ابن الساعاتي أشاد بنفاسة قومه وكرم محتده مشبّهاً إياهم بالغيث أو أمطار الرحمة التي تتساقط علي الأرض المقفرة والمتعطشة وتتعّهدها بالريّ. فكما أنّ الغيث يحيي الأرض بعد موتها ينقذ قوم الشاعر الفقراء المعوزين من الجوع أيضاً. ممّا يسوء شاعرنا أنّه قد اتّهمه البعض بأن هو وقبيله يقرضون الشعر للاستجداء واستدرار أكف الأغنياء والأثرياء ولذلك أكد علي أنّهم لا ينظمون قصائدهم إلّا للتعبير عن مآثرهم وأمجادهم وحبّهم للسيوف الماضية التي تعلو رقاب الأعداء ولا من أجل التغزل بالغانيات البيض أو الغلمان السّمر شأن المزيد من شعراء عصره. ولقد اعتزّ خاقاني بمدينة شروان التي يحسد عليها لمكانتها المتميزة.

مما يدل علي موقع شروان الفريد في نفس الشاعر أنّ المحلّ السّامي الذي يحتله هو وقومه بين الأقوام منوط بشروان وعلوّ مقامها وسمو شأنها:

از خـــاك درگهـــت بمكـــاني رســـيده‌أم ... كـــامروز زعـــرش را همـــه رشـــك از مكـــان

التعريب: ((من تراب رحابك وصلتُ مرتبة يحسد عليها كلّ من يسكن في السّماء)).

وظّف الشاعر للتنويه بشأن مولده شروان تشبيهين صاغهما بطريقة ضمنية فمّرة شبه

نفسه بالشمس قائلاً إنّه يجدر به الاعتزاز بشروان كما تجدر بالشمس التباهي بالشرق بوصفه مولداً لها وأخري شبّه نفسه بالقطرة التي تفضّل البقاء في موطنه الذي هو الصدف:

فخـــر مـــن يـــاد كـــرد شـــروان بـــه كـــه مباهـــات خـــور بـــه بـــاختر اســـت

ليـــــك تبريـــــز بـــــه اقامـــــت را كـه صدف قطره را بهمين مقّر است[٢٧]

التعريب: ((يجدر بي الفخر بشروان كما تتباهي الشمس بالشرق، يطيب بي المقام بتبريز (لكنّني أفضّل شروان) كما أنّ الصدف هو أفضل مسكن للقطرة)).

شبّه خاقاني بدوره حبيبه شروان بالجنة لما يرى فيها من مناظر رائعة تأخذ بمجامع القلوب. تحدّث الشاعر في البيت التالي عن وطنه وكأنّه يتغزّل بحبيبة له كما يتمني وبنبرة متشائمة لو تمتّع بجمالها عن كثب:

شـروان بباغ خلـد بـرين مانـد از نعـيم شود آيا هنگام كام گرفتن شود مرا[٢٨]

التعريب: ((شروان أشبه ما يكون بجنّة الخلد لما فيها من نعيم هل يتاح لي يا تُري أن أقضي منها وطراً؟!))

و لا يخفي ما يتضمنّه هذا التساؤل من حالة التّشاؤم التي تشي بمشاعر الخيبة والإحباط في نفس الشاعر.

لمح خاقاني علي غرار ابن الساعاتي إلى مناطق وبلاد تحتويها شروان معبّراً عن حنينه وشوقه إليها. سمّي الشاعر ((شماخي)) وهي من أقضاء شروان بمصر الأعاجم تعظيماً لها إذ نشأ فيها كما دعا شروان تارة بـ ((جيحون)) وأخري بـ ((سمرقند)) وكما جعل أرض ((شروان)) بمستوي مياه ((بخارا)) لما لها من خصوبة وقابلية للإنبات والأبيات هي:

چون بـه شمـاخي تـو را كرده قضـا شـهربند نـام شمـــاخي تـــوان مصـــر عـــجم ســـاختن

خـاك درت جيحـون اثر، شروان سمرقند دگر خـــاك شـــماخي از خطـــر آب بخـــارا ريختـــه

التعريب: ((إذا قُـدّر لـك أن تصبح ((شمـاخي)) موطنـاً لـك فبإمكانـك أن تسّـمي ((شمـاخي)) مصـر الأعـاجم. لأرضـك يـا شمـاخي أثـر ((جيحـون)) نفسـه. يمكـن اعتبـار شروان، سمرقند الأخرى، كما يمكن تشبيه أرض شماخي بمياه بخارا.))

٣-٥- معاناة الشاعرين في الوطن

يواجه الشاعر أحياناً أحوالاً صعبة وفترة عصيبة ترفع عقيرته بالاحتجاج علي مصائبه ومآسيه. الكلمات التي تفوّه بها شاعرنا ابن الساعاتي في المقتطف الشاعري التالي تجعل القارئ في خضمّ الصراع الذي فتحه الدهر ضده فقد صوّب الدهر نحو الشاعر سهامه فأصاب كبده ومزقه إرباً إرباً. كما سُلب الشاعر مّما يملكه من مال وجُعل فقيراً مفلساً بعد أن كان في عداد أصحاب الثراء والمال. ما تكبّده الشاعر من الآلام والمآسي استنفد صبره وحلمه وجعله ينحي باللائمة علي الأيّام ناعتاً إياها بالظالم والحاقد الذي لا يحتمل رؤية الشاعر غنياً فلذا طالما جرّعت الشاعر العلقم وكلّفته عناءً كبيراً. ومّما زاد الطين بلّة أن الدهر تجّهم وجهه عابساً للشاعر بوحده دون غيره فلو عمّت المصائب وطالت الجميع لهانت وسهلت في نظر الشاعر. كما جاء في المثل المأثور: ((الموتُ إذا شَمل الجميعَ فَهو عُرسٌ[٣٠])).

رَمَـــتْني اللّيـــالي واللّيـــالي مُصِـــيبةٌ ... فَكَمْ لِسَهامِ الْحزن فَطٌ[٣١] كبِدي كلْما

وأصْبْحتُ مِـنْ مـالي وصـبري مُعـدِما[٣٢] ... وكنـــتُ مـــن ذوي الـــثراء قُـــدُما

ومِـــن كمَـــدي إني خُصِصـــتُ وإنمـــا ... يهـــون ويلغـــي كـــلُّ صَـــعبٍ إذا عمّـــا

الظلم الذي مورس بحق خاقاني في موطنه جعله يغادر بلده. ولكنّه لم يجد أمامه ملجأً يؤويه. لأنّه يعرف أنّ الحياة في بلاد غريبة تذيقه الأمرّين ولذلك ظل في حيرة من أمره. والأبيات التالية للشاعر تصوّر لنا بوضوح حالة الذهول والضياع التي يعيشها الشاعر:

كجـا گـريـزم سـوي عـراق يـا اردن ... كجـا روم سـوي ابخـاز يـا بباب البـاب

بشـام يـا خراسـان بمصـر يـا تـوران ... بـروم يـا حبشـتان بهنـد يـا سـقلاب[٣٣]

التعريب: ((إلى أين أهرب تجاه العراق أو صوب ((أردن)) إلى أين أروح نحو ((البخاز)) أو((باب الباب))؟/ أروح إلى الشام أو خراسان، أ بمصر أو ((طوران))؟ أروح إلى الجيش أو الهند أو سقلاب؟!)).

المأساة التي كابدها خاقاني حثّته إلى التعبير عن مسقط رأسه ((شروان)) بالسجن أو شرّ البلاد وعن خصومه بشر الدوّاب. نستشرف أحياناً في كلمات خاقاني من اليأس والإحباط والتشاؤم ما لا نجده لدي ابن الساعاتي وبما أنّ خاقاني لم يجد أمامه حيلة

لتخليص نفسه من الأشراك التي تورّط فيها يسأل الله متضرعاً ليخلّصه ممّا يعانيه كإنسان مشرّد غريب وأحواله المزرية:

يـا ربّ ازيـن حبسـگاه بـاز رهـانش كـه هسـت شـروان شـر الـبلاد خصـمان سـر الـواب
زيـن گـره تـا حفـاظ حـافظ جـانش تـو بـاش كـز تـو دعـاي غريـب زود بـود مسـتجاب[٣٤]

التعريب: ((يا ربِّ خلصه من هذا السجن الذي سمّي شروان وهي أسوأ البلدان كما أنّ خصومه هم أسوء وأذلّ من الحيوان./ يا ربّ! احفظه من هذه الورطة التي تهدد حياته فإنك تلبي سؤال الإنسان الغريب سريعاً)).

من الملفت أنّ خاقاني انتزع من نفسه شخصية يتحدّث عنها بأسلوب سردي لكي يثير في نفس القارئ الشعور بالتضامن والمواساة حياله.

٣-٦- الحنين إلى مغادرة الوطن

بما أنّ الوطن أغلي وأحبّ شيء لدي الشاعر فبطبيعة الحال يورث الابتعاد عنه في نفسه آلاماً وأحزاناً تفوق الحصر. ولذلك امتلأت دواوين الشعراء بالكلمات التي تكشف النقاب عن استياءهم وانزعاجهم من حياة التشرّد والاغتراب. لقد مررنا ضمن دراستنا لأشعار الشاعرين ابن الساعاتي وخاقاني بأبيات تدل علي استحسان الشاعرين لمغادرة البلاد واستساغة العيش في الغربة. بل تخطّي الشاعران هذا الحدّ وذهبا إلى أبعد من ذلك حيث صرّحا بأنّ مفارقة الوطن من شأنها أن ترفع من شأن الغريب وتزيد من منزلته. لقد استفاد الشاعران من تشابيه ذات صياغة ضمنية توضّح أفكارهما للقارئ بصورة ملموسة ومحسوسة فعلي سبيل المثال ولا الحصر، صمّم ابن الساعاتي علي ترك جلّق وهي دمشق اليوم بحثاً عن بيئة جديدة تحقّق له الأهداف التي رسمها لنفسه. كما أنّ المسك وهو من بعض دم الغزال يتحوّل إلى مادة ثمينة وكريمة تباع وتشتري بأثمان باهظة بعد أن يفارق معدنه. ثم إنّ السيوف القاطعة لا يهابها أحد إلاّ إذا أخرجت من غمدها وأصبحت مشهورة ومسلولة وها هي أبياته:

مَـا سِـرتُ عَـن جِلَـق[٣٥] أبغـي البَـدِيلَ بِهَـا لَـــولاَ طَـــلابي مـــحَلاً لِلعُـــلا قَـــذَفَا
طُـــولُ المَقَـــامِ لِأهـــلِ الفَضـــلِ مَنقَصَـــةٌ والمِسـك لَولَـا النَّـوَي مَـا أدرَك الشَّـرَفَا

لَـو لَـم تجـرَّد سُـيوفُ الهنـدِ مَـا رُهِبَـت والـدُّرُ مَـا جَـلَّ حـتى فَـارَقَ الصَّـدَفَا

المتتبع في أشعار ابن الساعاتي يجد فيها قصائد أعرب فيها الشاعر عن شوقه وآماله لوطنه بحيث يشعر القارئ أنّ الشاعر يبحث عن وطنه وكأنّه مدينة أحلامه وكعبة آماله[٣٦]. إذاً نجد كلمات ابن الساعاتي مثقّلة بشعورين متناقضين، الشعور بالشوق والحنين إلى الوطن والشعور بالحزن والألم للابتعاد عنه ومن الواضح أنّ الشعورين وجهان لعملة واحدة. ممّا يدّل علي اشتياق الشاعر لأرضه الحبيبة أنّ عينيه مازالتا تذرفان دموعاً محمرّة وقلبه مازال هائماً بوطنه:

علـي هَرمـي مِصْـر السـلامُ مِـنْ امْـرِيءٍ إذا ذُكـــر الْأوطـــانُ حَـــنّ وسَـــلَّما

ومـــا فارقَتْهـــا العـــينُ إلّـــا قريحـــةً ولا القلـــبُ إلّـــا مُسْـــتهاما متيمـــا[٣٧]

بما أن الأهرام المصرية ترمز إلى بلاد مصر العتيقة يوجّه الشاعر تحيته إليها احتفالاً لها. يحتوي ديوان خاقاني الشعري أيضاً علي قصائد عديدة تعبّر عن حبّ الشاعر لبلده خراسان. يتّحدث الشاعر عن خراسان بلهجة غاضبة وشاكية إذ هناك من لا يسمح له بزيارتها مع أنّه يحبّ خراسان حبّاً يلامس نياط قلبه. يعيش الشاعر بعيداً عن خراسان في حين ليس لديه بصيص من نور الأمل لرؤيتها والسفر إليها. يعطينا خاقاني صورة تشبيهية نعرف من خلالها مدي افتقاده لبلده حيث يقول لو كانت خراسان مشهداً وعسلاً بات الشاعر بمثابة شمعتة. ومن شأن الشمعة أن تكون ممزوجةً بالشهد لكنّها انفصلت عنه ويقول أيضاً لو صارت خراسان بمنزلة النّبي سيلمان لكان الشاعر خاتمه الذي يجب أن لا يفارق صاحبه لكنه فارقه. ثمّ يلمح إلى أنه طرد من خراسان لا لشيء سوي لأنّه اتّهم بإثارة الفتنة. لكنّه يرفض بشدّة أن يكون هو مثيراً للفتنة مع أنّ دينه وعلمه يقفان حائلاً دون ذلك:

دلـــم از عشـــقِ خـــراسان بـــگرفت وين دل وعشق به اوطان شدنم نگذارند

از وطـــن دورم وامیـــد خراســـانم نیـــست کـه بـدان مقـصد کیهـان شـدنم نگذارنـد

ویحك آن موم جدا مانده ز شهدم که کنون محـــرم مُهـــر ســـلیمان شـــدنم نـــگذارند

فتنـه از من چـه نویسد کـه مرا دانش ودین دو رقیبنـد کـه فتـآن شـدنم نـگذارند[٣٨]

تعريب الأبيات: ((ضاق قلبي من حُبّ خراسان ذرعاً ولكن لا يسمحون لي أن أحلّ خراسان قلبي وحبّي./ بيني وبين خراسان بون شاسع فليس لي أمل لزيارتها إذ لا تُتاح لي

العودة إلى تلك الوجهة./ كأنّني تلك الشمعة المنفصلة عن شهدها فلا يدَعونني أن أبيت مَحرماً لخاتم النبّي سليمان./ لماذا يتّهمونني بالفتنة مع أنّ العلم والدّين يراقبانني دوماً ويحفظانني من أن أكون مثيراً للفتن)).

لو قورن بين كلمات الشاعرين فيما يتعلّق بالوطن لوجدنا أنّ خاقاني ليس لديه أدنى أمل للعودة في أحضان الوطن في حين لانري في كلمات ابن الساعاتي حالة اليأس والإحباط والتشاؤم التي نعهدها في كلمات خاقاني.

يطمع خاقاني أيضاً إلى جلاء الوطن إلاّ أنّ الأسباب التي حضّته علي المغادرة تختلف عن ابن الساعاتي. كان ابن الساعاتي كما أسلفنا تواّ يعيش بلدة لم يرغب في تركها إلاّ بغية الوصول إلى الأهداف النبيلة والغايات السامية التي لا يمكن تحقيقها إلاّ بشدّ الرّحال. في حين أنّ خاقاني يصبو إلى هجر البلاد لأنّه عومل فيه معاملة سيئة عكرت مزاجه ونغّصت عيشه إلى درجة يبدو وطنه في نظره أرض كربلاء التي ترمز إلى الكرب والبلاء كما تخيل نفسه الإمام الحسين عليه السلام الّذي شهد ألوان الظلم وضروب الاضطهاد من قبل يزيدي عصره. فإذا اعتبر الشاعر شروان كربلاء فمن المتوقع أن يسمّي أيآم إقامته في شروان بعاشوراء وهكذا أعطي خاقاني صورة مكتملة الأجزاء ومتناسقة العناصر مستخدماً فيها صناعة مراعاة النظير في أروع صياغتها:

من حسين وقت ونا اهلان يزيد وشمر من روزگارم جمله عاشورا وشروان كربلا[٣٩]

التعريب: ((أنا حسين عصري والأشرار هم يزيد وشمر. أيامي صارت عاشوراء كما شروان أصبحت كربلا)).

لقد أثبت خاقاني براعته الفائقة بحيث حشر رسائل كثيرة في بيت واحد يصّور فيه قصة حياته المؤلمة والمؤسفة في صورة مقتضبة جداً يتطلّب شرحها كتاباً ضخماً. استلهم الشاعر من حادث كربلاء وأخذ مفردات الحادث في شعره ومنها: حسين ويزيد وشمر وعاشورا وغير ذلك. ثّم وظفها للتعبير عمّا يعانية في شروان من ظلم وإرهاق في صورة انتظمت معانيها في منظومة فسيفسائية رائعة.

٤ـ نتائج البحث

١. الحياة السياسية والجتماعية التي خاضها خاقاني وابن الساعاتي أملت علي الشاعرين الرؤي والأفكار التي تدخل في نطاق الأشعار الوطنية.

٢. بما أنّ الأشعار الوطنية ناجمة عن الظروف التي يعيشها الشاعر، هناك المزيد من أوجه التشابه والتلاقي تمّ رصدها عبر إمعاننا النظر في قصائد الشاعرين. والمواضيع التي تناولها الشاعران في قصائدهما الوطنية تكاد تكون كالتالي:

أ. التشكي من الدهر: التشكي من آلام الدهر سمة من سمات الأشعار الوطنية عند الشاعرين فقد صبّ الشاعران كلاهما كؤوس الغضب علي الدهر الذي استجلب لهما حياة الاغتراب ومشاعر الاستيحاش.

ب. التشكي من المشاعر الاغترابية: لقد جرّب كلّ من الشاعرين مشاعر العيش في بيئة نائية عن الديار ممّا دفعهما إلى الإعراب عن الأحزان التي تنتابهما أثناء الغربة.

ج. مدح المقاتلين الشجعان: أشاد الشاعران في قصائدهما بالمقاتلين الأبطال الذين دافعوا عن بلادهم بلا هوادة وطاردوهم عن بلادهم صاغرين.

د. التغنّي بالقوم ومعالم الوطن: شكلت القصائد التي افتخر فيها الشاعران بالقوم والوطن ومعالمه كمية لا بأس بها والسبب في ذلك أنّ الشاعر الملتزم بحبّ الأهل والوطن يعتبر نفسه نباتاً أنبتته أرض الوطن الخصبة فهو يحنّ إلى مسقط رأسه ولو صار بعيداً ومنفصلاً عنه.

هـ. معاناة الشاعرين في الوطن: مرّ الشاعران بأحوال صعبة وظروف عصيبة في بلاد تسودها المحن والمصائب انعكست في كلماتهما بشكل لا غبار عليه.

و. الحنين إلى مغادرة البلد: نمرّ في قصائد الشاعرين بأبيات تدلّ علي استحسان الشاعرين لمغادرة البلد وطموحهما إلى العيش في الغربة نظراً لما في حياة الترحال والتنقّل من آثار إيجابية بناءة لاكتمال الشخصية ونضوجها.

٣- وأما فيما يتعلق بوجوه التباين بين الشاعرين فنستطيع القول بأنّه هناك فوارق كبيرة نلمسها في أشعارهما ألا وهي رؤية الأديبين نحو الحياة. فبينما ينظر ابن الساعاتي

بنظرة إيجابية تجاه الحياة، يرى خاقاني الأحداث برؤية سلبية ولذلك نجد كلماته مشحونة بالضجر والاستياء لما يواجهه من الآلام والأحزان. وعلي نقيض خاقاني يرى ابن الساعاتي نوازل الدهر وخطوبه بمنظار متفائل.

هوامش البحث

(١) انديشه وطن در شعر دورهي مشروطه ، محمد بهنام فر، تحقيقات زبان وادبيات فارسي، ١٣٨٨، شماره ٢.ص ١٩.

(٢) ادبيات تطبيقي، محمد عبدالسلام كفافي، مشهد: به نشر، ترجمه حسين سيدي، الطبعة الأول،١٣٨٢، ص١٤.

(٣) تاريخ ادبيات در ايران، ذبيح الله صفاء، تهران: فردوس، جلد دوم، چاپ دهم،١٣٦٩، ص ٤٣؛ مجمع الفصحاء، رضا قليخان هدايت، تهران: نشر أمير كبير، به كوشش مظاهر مصفا، جلد دوم،١٣٨١، ص ٧٣٢؛ - سخن وسخنوران، محمد حسين فروزانفر، تهران: زوار، چاپ اول، ٢٠٠٨، ص ٦١٣-٦١٤؛ فرهنگ تحليلي لغات وتركيبات ديوان خاقاني شرواني، رسول چهرقاني، تهران: دانشگاه تربيت دبير شهيد رجائي، به كوشش رسول چهرقاني منتظر، چاپ دوم، ١٣٨٩، ص ٤.

(٤) وفيات الأعيان، ابراهيم بن ابي بكر ابن خلكان، بيروت: دارالصادر، تحقيق احسان عباس، ١٩٣٨م، المجلد ٣، ص ٣٩٥.

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابوالعباس احمد بن قاسم ابن ابي اصيبعه، بيروت: دار مكتبة الحياة، المحقق: نزار رضا، (لاتا)، المجلد٢، ص ١٨٤.

(٦) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المجلد٢، ص ١٨٤.

(٧) اعيان الشيعه، محسن امين، بيروت: لانا، به كوشش حسن امين، ١٩٨٣م، مجلد ٨، ص ٢٤١.

(٨) انديشه وطن در شعر دورهي مشروطه ، محمد بهنام فر، تحقيقات زبان وادبيات فارسي، ١٣٨٨، شماره ٢.ص ١٨٠.

(٩) انديشه وطن در شعر دورهي مشروطه، ص ١٨٠.

(١٠) الديوان، بهاءالدين ابي الحسن علي بن رستم بن هردوز الخراساني ابن الساعاتي، بيروت: سلسله العلوم الشرقيه، تحقيق انيس المقدسي، المجلد ١، ١٩٣٨م، ص ١٦.

(١١) الديوان، المجلد ١، ص ١٥٧.

(١٢) بررسي فرايند نوستالژي در شعر معاصر فارسي، مهدي شريفيان، وشريف تيموري، سال هفتم، شماره١٢، ١٣٨٥، ص. ٣٥.

(١٣) الديوان، المجلد١، ص ١٧.

(١٤) الديوان، المجلد١، همان.

(١٥) الديوان، المجلد١، ص ٣٧.

(١٦) تحليل زمينهاي نوستالژي در اشعار خاقاني، امامي، نصرالله وافسانه سعادتي، فصلنامه علمي-تخصصي مطالعات زبان وادبيات غنايي، سال پنجم. شماره ١٣، ١٣٩٤ ، ص ١٤.

(١٧) تلّقى قدما از وطن، محمدرضا شفيعي كدكني، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي، ١٣٨٩، ص ١٨.

(٣) الديوان، المجلد١، ص ٢٥٤.

(١). العطب: العطل والهلاك.

(٢) الديوان، المجلد١، ص ٣.

(٢) الديوان، المجلد١، ص ٦٤.

(٣) الديوان، المجلد١، ص ٣٩٧.

(١) الادب في العصر الايوبي، محمد زغلول سلام، المعارف بالاسكندريه،١٩٩٠، ص ٣٩٦.

(٢) الديوان، المجلد٢، ص ١٧٥.

(٣) الديوان، المجلد٢، ص ١٣٤.

(٤) الديوان، المجلد٢، ص ٨٦٣.

(٥) الديوان، المجلد١، ص ٣.

(٢٤). الضباء: السيوف الحادّة. البيض: المقصودبها هنا النساء الجميلات. السّمر: المقصود بها هنا الغلمان الذين في لونهم سمرة.

(١) الديوان، حسان المعجم افضل الدين ابراهيم بن علي خاقاني شرواني، بتصحيح وتعليق علي عبدالرسولي، طهران: سعادت، ١٣١٦، ص ٨.

(٢) الديوان، المجلد٢، ص ٧.

(٣) الديوان، ص ٨١٦.

(٤) الديوان، ص ٥٤٥.

(١) مجمع الأمثال، أثير الدين الميداني، مصر: دارالعلم، ط١، ١٩٨٧م، المجلد٣، ص ٢١٧.

(٢) الديوان، المجلد١، ص ٢٠-٢١.

(٣) الديوان، ص ٥٣.

(٤) الديوان، ص ٤٥.

(٣١). فَطَّ: مَزّق وقطّع. الكلم: الجرح.
(٣٢). المُعدم: الفقير.

(١) الديوان، المجلد١، ص ١٧٤.
(٢) عشق وطن وآزادي در انديشه خليل جبران وامين پور، سيد حسين سيدى، سكينه صارمي گروي، فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقي، سال هفتم. شماره٢٦، ١٣٩٢، ص ٦١.
(٣) الديوان، المجلد١، ص ١٧٨.
(٤) الديوان، ص ١٥٥.
١. جلّق: اسم قديم لمدينة دمشق.

(١) الديوان، ص٣.

قائمة المصادر والمراجع

- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، محمّد بن سلام، (لاتا)، المحقق: محمد محمد شاكر، الجدة: دار المدني.
- ادبيات تطبيقي، محمد عبدالسلام كفافي، ترجمه حسين سيدي، چاپ اول، مشهد، به نشر، (١٣٨٢ش).
- اعيان الشيعه، محسن امين، به كوشش حسن امين، بيروت، لانا، (١٩٨٣م).
- الادب في العصر الايوبي، محمد زغلول سلام، المعارف بالاسكندريه، (١٩٩٠م).
- انديشه وطن در شعر دورهي مشروطه، تحقيقات زبان وادبيات فارسي، محمد بهنام فر، شماره ٢.صص١٨ تا٣٨، (١٣٨٨ش).
- بررسي فرايند نوستالژي در شعر معاصر فارسي، مهدي شريفيان وشريف تيموري، سال هفتم، شماره١٢، صص٣٣تا ٦٢، (١٣٨٥ش).
- تاريخ ادبيات در ايران، ذبيح الله صفا، جلد دوم، چاپ دهم، تهران، فردوس، (١٣٦٩ش).
- تحليل زمينهاي نوستالژي در اشعار خاقاني، نصرالله امامي وافسانه سعادتي، فصلنامه علمي-تخصصي مطالعات زبان وادبيات غنايي. سال پنجم. شماره ١٣، صص٧تا٢٤، (١٣٩٤).
- تلّقي قدما از وطن، محمدرضا شفيعي كدكني، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي، صص١تا٢٦، (١٣٨٩ش).

- دراسات في الأدب العربي الحديث، محمد مصطفي هَدارة، بيروت- لبنان، دارالعلوم العربيه، (١٩٨٧م).
- ديوان، بهاءالدين ابي الحسن علي بن رستم بن هردوز الخراساني ابن الساعاتي، تحقيق انيس المقدسي، جلد ١و٢. بيروت، سلسله العلوم الشرقيه، (١٩٣٨م).
- ديوان، حسان المعجم افضل الدين ابراهيم بن علي خاقاني شرواني، بتصحيح وتعليق علي عبدالرسولي، تهران، سعادت، (١٣١٦ش).
- رحمتي، مريم، جهانگير أميري، بهناز نظري و جبار آذربار، (٢٠١٨)، بين المديحين النبويين لكعب بن زهير و ابن الساعاتي (دراسة وتحليل)، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، العدد ٢٤، تهران: جامعة تربيت مدرس، صص ١-٢٦.
- سخن وسخنوران، محمدحسين فروزانفر، چاپ اول، تهران، زوّار، (١٣٨٧ش).
- سيماي جامعه در اشعار شاعران آذربايجان(قطران تبريزي، مجيرالدين بيلقاني، فلكي شرواني، خاقاني شرواني ونظامي)، حسين نوين رنگرز،پاياننامه، دانشگاه تربيت مدرس دانشكده علوم انساني، صص١-٢٠، (١٣٧٨ش).
- عشق وطن وآزادي در انديشه خليل جبران وامين پور، سيد حسين سيدي وسكينه صارمي گروي، فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقي، سال هفتم، شماره٢٦، صص٤٧-٦٧، (١٣٩٢ش).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابوالعباس احمد بن قاسم ابن ابي اصيبعه، المحقق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة. (لاتا).
- فرهنگ تحليلي لغات وتركيبات ديوان خاقاني شرواني، رسول چهرقاني، به كوشش رسول چهرقاني منتظر، چاپ دوم، تهران، دانشگاه تربيت دبير شهيد رجائي، (١٣٨٩ش).
- مجمع الأمثال، أثير الدين الميداني، ط١، مصر، دارالعلم، (١٩٨٧م).
- مجمع الفصحاء، رضا قليخان هدايت، به كوشش مظاهر مصفا، جلد دوم، تهران، نشر امير كبير، (١٣٨١).
- وفيات الأعيان، ابراهيم بن ابي بكر ابن خلكان، تحقيق احسان عباس، بيروت: دارالصادر، (١٩٣٨م).